بسم الله الرحمن الرحيم

البينة القرآنية

تأليف الشيخ

عبد المجيد بن عزيز الزنداني

حفظه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

البينة القرآنية

إن الحمد لله تعالى نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونسترشده ونؤمن به ونتوكل عليه وأصلي وأسلم على سيد الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون

أما بعد:إن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.فإن الاتصال بالملأ الأعلى أمر لم يدعه المولى عز وجل أمرا سهلا هينا يدعيه من يدعيه، إذ لوكان كذلك لخربت الديانات وفسدت الملل وستكون عقائد الناس تخضع لأهواء وأمزجة المضلين والمبطلين والدجاجلة، وصيانة لعقائد الناس عن مثل هذا، فقد أيد الله تعالى أنبياءه ورسله بالبينات والمعجزات التي من المحال أن تكون في استطاعة البشر أو قدرتهم، بل يقفون أمامها موقف العاجز كما قال تعالى:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ الحديد الآية ٢٥ولقد أيد الله رسولهﷺ بأعظم المعجزات التي تتلاءم مع كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وهي معجزة القرآن الكريم، ومن أجل أن نقف على هذه البينة والمعجزة الباهرة لخاتم الأنبياء والمرسلين التي أيد الله بها رسوله ﷺ نتاول المباحث التالية:

المطلب الأول

معنى المعجزة[1] في اللغة والاصطلاح

قال في مختار الصحاح:

(عجز) و أَعْجَزَهُ الشيء فاته و عَجَّزَهُ تعجيزا ثبطه أو نسبه إلى العجز و المُعْجِزَةُ واحد مُعْجِزَاتِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط:

والتَّعْجِيزُ: التَّثْبِيطُ، والنِّسْبَةُ إلى العَجْزِ.

ومُعْجِزَةُ النبيِّ، صلى الله عليه وسلم: ما أَعْجَزَ به الخَصْمَ عندَ التَّحَدِّي، والهاءُ للمُبالَغَةِ."[2]

وقال في لسان العرب لإبن منظور:

والعَجْزُ: الضعف، تقول: عَجَزْتُ عن كذا أَعْجِز. وفي حديث عمر: ولا تُلِثُّوا بدار مَعْجِزَة أَي لا تقيموا ببلدة تَعْجِزُون فيها عن الاكتساب.

والمُعْجِزَةُ، بفتح الجيم وكسرها، مفعلة من العَجْز: عدم القدرة.

وقال في مفردات ألفاظ القرءان للأصفهاني:

والعجز أصله التأخر عن الشيء للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة.

قال تعالى: ﴿أعجزت أن أكون﴾ المائدة/ ٣١،

---

(١) البينة: مصطلح شرعي استعمله القرءان الكريم كثيرا بمعنى المعجزة ولذا فإن علماء التفسير يعبرون عن البينة بالمعجزة في تفاسيرهم كالإمام البيضاوي في تفسيره لقوله تعالى"لقد أرسلنا رسلنا بالبينات"قال بالمعجزات،ج٣ ص٤٤ وقد فسر كذلك الإمام القرطبي البينات بالمعجزات في تفسيره الجامع ج٨ ص٣٦٥وكذا ابن كثير في تفسيره ج٣ص٥٥٤وأبي السعود ج٢ص١٢٢، والشوكاني في فتح القدير ج٢ ص٤٦٣،والسيوطي في تفسيره ج١ص٢٠٨ والإمام النسفي في تفسيره ج٤ ص٢٥١ والإمام الألوسي في تفسيره روح المعاني ج٤ص١٤٥، وغيرهم من أئمة التفسير.غير أن فضيلة الشيخ / عبد المجيد عزيز الزنداني يرى أن معنى البينة أوسع وأشمل من معنى المعجزة، فمعنى البينة البيان للحق وقد لا يكون فيه . شرطا . معنى الإعجاز والتحدي . بخلاف المعجزة فهي لاتكون معجزة إلا إذا اقترنت بالتحدي،وهذا قول قوي وجيه يعززه ويقويه الإستعمال القرآني فالقرآن يستعمل مصطلح"البينة"كثيرا لكونها أوسع مدلولا من لفظ"المعجزة" ولأن لفظ"البينة"أبلغ في لغة العرب من لفظ""المعجزة"في بيان الحق وظهوره وجلائه مما يجعل المعاند والجاحد له لا يستطيع نكرانه، بخلاف المعجزة فقد ينكرها الجاحد والمعاند، والله تعالى أعلم.

(٢) القاموس المحيط باب

وأعجزت فلانا وعجزته وعاجزته: جعلته عاجزا. قال: ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ التوبة/٢،

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾الشورى/٣١، ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ الحج/٥١

ومن هذه التعاريف يمكن أن نعرف المعجزة لغة بأنها:

الضعف وعدم القدرة.

واصطلاحا هي: "هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي

قال الإمام القرطبي في تفسيره:[٣]

"وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها وشرائطها خمسة فإن أختل منها شرط لا تكون معجزة

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتي آت في زمان يصح فيه مجيء الرسل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة له ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر وانشقاق القمر وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر.

والشرط الثاني هو أن تخرق العادة وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعي للرسالة آيتي مجيء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها لم يكن فيما ادعاه معجزة لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله فلم تفعل من أجله وقد كان قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه ودعواه في دلالتها على نبوته كدعوى غيره فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه والذي يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه وذلك أن يقول الدليل على صدقي أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواي على الرسالة فيقلب هذه العصا ثعبانا ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة أو ينبع الماء من بين أصابعي كما ينبعه من العين أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات التي ينفرد بها جبار الأرض والسماوات فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه لو أسمعنا كلامه العزيز وقال صدق أنا بعثته ومثال هذه المسألة ولله ورسوله المثل الأعلى ما لو كانت جماعة بحضرة

(٣) الجزء الأول ص٦٩وما بعدها

ملك من ملوك الأرض وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسمعه الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ودليل ذلك أن الملك يصدقني بفعل من أفعاله وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديقي فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ثم عمل ما استشهد به على صدقه قام ذلك مقام قوله لو قال صدق فيما ادعاه علي فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو وخرق به العادة على يد الرسول قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال صدق عبدي في دعوة الرسالة وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله عز وجل فيقول آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتا أو يحرك الأرض عند قولي لها تزلزلي فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدي به.

الشرط الرابع: هو أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها المستشهد بكونها معجزة له وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعي للرسالة آية نبوتي ودليل حجتي أن تنطق يدي أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت كذب وليس هو نبي فإن هذا الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعي للرسالة لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه وكذلك ما يروي أن مسيلمة الكذاب لعنه الله تفل في بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من الماء فما فعل الله سبحانه من هذا كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب.

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة فإن تم الأمر المتحدى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدمة فهي معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده فإن أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتي به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيا وخرج عن كونه معجز أو لم يدل على صدقه ولهذا قال المولى سبحانه فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين وقال أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات كأنه يقول إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سور من جنس نظمه فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله"

المطلب الثاني

أهمية البينة (المعجزة) في إثبات دعوة المرسلين

مثال:

لو أن شركة من الشركات أرادت أن ترسل مندوبا لها إلى فرع من فروعها في بلد من البلدان فإنها لا ترسله هكذا بل تعززه بما يدل أنه مندوب رسمي من لديها، فتعززه بالإثباتات اللازمة التي بها يصدق أنه فعلاً مندوب هذه الشركة هذا في شأن البشر وتعاملهم مع بعضهم، فكيف بالله تعالى حين يرسل رسله إلى الناس لهدايتهم وبيان الدين لهم، لاشك أنه يؤيدهم بكل الدلائل الدالة على نبوتهم وأنهم حقا رسل الله تعالى إلى خلقه وقد ورد في الحديث الذي أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي والبيهقي في الدلائل **عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".**

قال الإمام ألبا قلاني "يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن يدّعوا فيها أنها من دلالتهم وآياتهم لأنه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية لان النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه ولا بشيء آخر سوى البرهان الذي يظهر عليه فيستدل به على صدقه فإذا ذكر لهم أن هذه آيتي وكانوا عاجزين عنها صح له ما ادعاه ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانا له ولا يكون معجزاً إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله فإذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزا"(٤)

وهذا ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد الآية ٢٥ قال القرطبي"أي بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ وهو النقل الصدق ﴿والميزان﴾ وهو العدل الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة كما قال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه

(٤) إعجاز القرءان ج١ ص٢٥١

ويتلوه شاهد منه﴾.

وقال تعالى ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين** ﴾قال القرطبي في تفسيره

﴿**وجاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ أي بالمعجزات الواضحات والبراهين النيرات.

فتبين من هذا أن البينات والمعجزات ما من نبي أو رسول إلا أيده الله بها وبدون هذه المعجزات الإلهية التي أيد الله بها أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ما آمن بهم أحد.

المطلب الثالث

البينات والمعجزات التي أيد الله بها أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام

إن جميع الأنبياء والمرسلين لم يرسلهم الله تعالى إلا بالبينات والمعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم ورسالتهم كما قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ الحديد الآية ٢٥، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:

"أي بالمعجزات والحجج الباهرات والدلائل القاطعات"

فدل على أن جميع الأنبياء والمرسلين لم يرسلهم الله تعالى إلى الناس إلا ومعهم ما يكفي لإيمان الناس بهم وتصديقهم، ونستعرض هنا في هذا المقام بعضا من معجزاتهم رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام:

معجزة نوح عليه السلام:

أرسل الله تعالى نبيه نوحا عليه السلام إلى قومه ومعه البينات والمعجزات الدالة على نبوته عليه السلام وهي الطوفان الذي لا يبقي ولا يذر ويهلك كل شيء، وقد سجل الله هذا في محكم التنزيل فقال سبحانه:

﴿كَذَّبَت قبلهمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَارَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ *وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَان كفر * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ *فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ القمر من الآية ٨ـ ١٧

وقد قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:

"كذبت قبلهم قوم نوح أي كذبوا نبيهم وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وإله وسلم وقوله فكذبوا عبدنا تفسير لما قبله من التكذيب المبهم وفيه مزيد تقرير وتأكيد أي فكذبوا عبدنا نوحا وقيل المعنى كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا نوحا بتكذيبهم للرسل فإنه منهم ثم بين

سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرد التكذيب فقال

﴿وقالوا مجنون﴾ أي نسبوا نوحا إلى الجنون

وقوله ﴿وازدجر﴾ معطوف على قالوا أي وزجر عن دعوى النبوة وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر والدال بدل من تاء الافتعال كما تقدم قريبا وقيل إنه معطوف على مجنون أي وقالوا إنه ازدجر أي ازدجرته الجن وذهبت بلبه والأول أولى، قال مجاهد هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انتهر وزجر بالسب وأنواع الأذى، قال الرازي وهذا أصح لأن المقصود تقوية قلب النبي صلى الله عليه وإله وسلم بذكر من تقدمه

﴿فدعا ربه إني مغلوب فانتصر﴾ أي دعا نوح على قومه بأني مغلوب من جهة قومي لتمردهم عن الطاعة وزجرهم لي عن تبليغ الرسالة فانتصر لي أي انتقم لي منهم طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لما أيس من إجابتهم وعلم تمردهم وعتوهم وإصرارهم على ضلالتهم قرأ الجمهور

﴿أني﴾ ط بفتح الهمزة أي بأني وقرأ ابن أبي إسحاق والأعمش بكسر الهمزة ورويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول أي فقال ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ أي منصب انصبابا شديدا **والهمر** الصب بكثرة يقال همر الماء والدمع يهمر وهمورا إذا كثر ومنه قول الشاعر

أعيني جودا بالدموع الهوامر على خير باد من معد وحاضر،

ومنه قول امرئ القيس يصف عينا

راح تمر به الصبا ثم انتحى فيه بشؤبوب جنوب .

﴿وفجرنا الأرض عيونا﴾ أي جعلنا الأرض كلها عيونا متفجرة والأصل فجرنا عيون الأرض، قال عبيد بن عمير أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون فالتقى الماء على أمر قد قدر أي التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم أي كائنا على حال قدرها الله وقضى بها وحكى أبن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يرد أحدهما على الآخر بل كان ماء السماء وماء الأرض على سواء

﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ أي وحملنا نوحا على سفينة ذات ألواح وهي الأخشاب العريضة ودسر قال الزجاج هي المسامير التي تشد بها الألواح واحدها دسار وكل شيء أدخل في

شيء يشده فهو الدسر"[٥]

معجزة سيدنا إبراهيم . عليه السلام .

وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين أرسله الله تعالى إلى قومه لينذرهم آتاه كذلك من البينات والمعجزات ما آمن عليه قومه، فمن المعجزات التي أيد الله تعالى بها نبيه إبراهيم عليه السلام أن أنجاه من النار فقد أعد له قومه نارا عظيمة وهائلة ليرجع عن الدين الحق وليعبد آلهتهم وأصنامهم فأبى وقال ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾الأنعام ٧٩، فما كان من قومه إلا أن أرادوا قتل إبراهيم . عليه السلام . حرقا بالنار والقصة ذكرها الله تعالى في محكم التنزيل فقال عزوجل:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ* وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ* فجعلهم جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُم فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * ﴾الأنبياء من الآية ٢١ إلى ٧٢

لا شك ولاريب أن هذا لايكون من شأن البشر أن يلقى إبراهيم في النار وأي نار إنها نار عظيمة أوقدت ليالي وأياما لإبراهيم فأن ينجوا من هذه النار إن هذا لأمر ليس من عادة البشر ولا في مقدورهم بحال من الأحوال.

---

(٥) فتح القدير ج٥ ص ١٢٢ . بتصرف

معجزة موسى عليه السلام:

وأما نبي الله تعالى موسى عليه السلام الذي أرسله الله تعالى إلى فرعون مصر وبني إسرائيل فقد أيده كذلك بالمعجزة الدالة على أنه رسول من عند الله تعالى ، وهي العصى التي تنقلب إلى ثعبان هائل لايقف أمامه أحد، والتي تتحول بقدرة الله تعالى إلى قوة عظيمة حتى أنها لتفلق البحر فلقتين، وقد قص الله تعالى علينا ذلك في كتابه فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدائن حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ واسترهبوهم وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ *فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مكر تموه فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِين ﴾ الأعراف

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات:

"يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق اللّه تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿فإذا هي تلقف ﴾ أي تأكل ﴿ما يأفكون ﴾ أي ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل، قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر، فخروا سجداً (قيل: كان رؤساؤهم أربعة، وهم أئمة السحرة، كما ذكره الطبري، والدارقطني،

وكان السحرة: سبعين ألفاً، وقيل دون ذلك، ومهما يكن من أمر فقد كان عددهم كبيراً)، وقالوا: ﴿آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾ قال محمد بن إسحاق: جعلت تتبع تلك الجبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً، قالوا: ﴿آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾ لو كان هذا ساحراً ما غلبنا. وقال القاسم بن أبي برة: أوحى اللّه إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغر فاه، يبتلع حبالهم وعصيهم، فألقي السحرة عند ذلك سجداً فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما.

﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون *وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾.

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه اللّه السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى اللّه، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه وسلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ممن اختار وأحضرهم عنده، ووعدهم بالعطاء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على التقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله {أنا ربكم الأعلى} من أجهل خلق اللّه وأضلهم. وقوله: ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أي تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فسوف تعلمون﴾ أي ما أصنع بكم، ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ يعني بقطع يده اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ولأصلبنكم أجمعين﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿في جذوع النخل﴾ أي على الجذوع، قال ابن عباس: وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون، وقول السحرة: ﴿إنا إلى ربنامنقلبون﴾ أي قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك،

فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب اللّه، ولهذا قالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا ﴾ أي عمنّا بالصبر على دينك والثبات عليه، ﴿وتوفنا مسلمين ﴾ أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام، وقالوا لفرعون: ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة، قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء.

معجزة عيسى . عليه السلام .:

كانت معجزة سيدنا عيسى . عليه السلام . إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله كما أخبر عزوجل عنه بقوله تعالى:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ آل عمران ٤٦ .٥١

قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآيات:

﴿وأبرئ الأكمه ﴾ قال: الأعمش.والمعروف عند العرب من معنى الكمه: العمى، يقال منه: كمهت عينه، فهي تكمه كمها، وأكمهتها أنا: إذا أعميتها، كما قال سويد بن أبي كاهل:

كمهت عيناه حتى ابيضتا فهو يلحى نفسه لما نزع

ومنه قول رؤبة:

هرجت فارتد ارتداد الأكمه في غائلات الحائر المتهته

وإنما أخبر الله عز وجل عن عيسى صلوات الله عليه، أنه يقول ذلك لبني إسرائيل، احتجاجا منه بهذه العبر والآيات عليهم في نبوته، وذلك أن الكمه والبرص لا علاج لهما، فيقدر على إبرائه ذو طب بعلاج، فكان ذلك من أدلته على صدق قيله، إنه لله رسول، لأنه من المعجزات مع سائر الآيات التي أعطاه الله إياها دلالة على نبوته. فأما ما قال عكرمة، من أن الكمه: العمش، وما قاله مجاهد: من أنه سوء البصر بالليل، فلا معنى لهما، لأن الله لا يحتج على خلقه بحجة تكون لهم

السبيل إلى معارضته فيها، ولو كان مما احتج به عيسى على بني إسرائيل في نبوته أنه يبريء الأعمش، أو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل لقدروا على معارضته بأن يقولوا: وما في هذا لك من الحجة، وفينا خلق مما يعالج ذلك وليسوا لله أنبياء ولا رسلا، ففي ذلك دلالة بينة على صحة ما قلنا من أن الأكمه: هو الأعمى الذي لا يبصر شيئا لا ليلا ولا نهارا، وهو بما قال قتادة: من أنه المولود كذلك أشبه، لأن علاج مثل ذلك لا يدعيه أحد من البشر، إلا من أعطاه الله مثل الذي أعطى عيسى، وكذلك علاج الأبرص. ﴿وأحيي الموتى بأذن الله ﴾

وكان إحياء عيسى الموتى بدعاء الله، يدعو لهم، فيستجيب له."(٦)

وقال ابن كثير في تفسيره:

﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللّه ﴾ وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن اللّه عزّ وجلّ الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله،

﴿وابرىء الأكمه ﴾ قيل: الأعشى، وقيل: الأعمش، وقيل: هو الذي يولد أعمى، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي﴿والأبرص ﴾ معروف.

﴿أحيي الموتى بإذن الله ﴾ قال كثير من العلماء: بعث اللّه كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه اسلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه اللّه بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحَّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار، انقادوا للإسلام وصاروا من عباد اللّه الأبرار، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل أحد إليه أن أن يكون مؤيداً من الذي شرَّع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعثِ من هو في قبره رهينٌ إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء، فأتاهم بكتاب من اللّه عزّ وجلّ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وما ذاك إلا أن كلام الرب عزّ وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في يوتكم ﴾ أي أخبركم بما أكل أحدكم

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرءان ج٣ تفسير قوله تعالى"وأبرئ الأكمه"

الآن، وما هو مدخر له في بيته لغد إن في ذلك كله، ﴿لآية لكم﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به، ﴿إن كنتم مؤمنين ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة﴾ أي مقرراً لها ومثبتاً، ﴿ولأحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ واللّه أعلم. ثم قال: ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم، ﴿فاتقوا اللّه وأطيعون، إن اللّه ربي وربكم فاعبدوه﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه"أهـ.

المطلب الرابع

البينة التي أيد الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم

(القرآن الكريم)

إن محمدا ﷺ هو رسول الله إلى الناس كافة على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وبيئاتهم وأزمنتهم ، وهو خاتم النبيين والمرسلين كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ سبأ الآية ٢٨

قال الإمام جلال الدين السيوطي:

أخرج ابن أبي شيبه وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ قال: إلى الناس جميعا.

وقال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ الأحزاب ٤٠

ولما أن كانت رسالته ﷺ كذلك . عامة للناس كلهم والزمان كله وخاتمة . كانت معجزته ﷺ كذلك عامة للناس جميعا والزمان كله،كانت معجزته في كل زمان ومكان وعصر ومصر هي القرآن الكريم الذي تحدى الله تعالى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله كما قال تعالى:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾الإسراء ٨٨

فأعظم معجزاته ﷺ القرآن العظيم على الإطلاق،وما أحسن كلام الإمام ابن كثير حول معجزة النبي ﷺ حيث يقول . رحمه الله تعالى .:

"وهي معنوية وحسية فمن المعنوية إنزال القرآن عليه وهو أعظم المعجزات وأبهر الآيات وأبين الحجج الواضحات لما اشتمل عليه من التركيب المعجز الذي تحدى به الانس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك مع توافر دواعي أعدائه على معارضته وفصاحتهم وبلاغتهم ثم تحداهم بعشر سور منه فعجزوا ثم تنازل الى التحدي بسورة من مثله فعجزوا عنه وهم يعلمون عجزهم وتقصيرهم عن ذلك وأن هذ مالا سبيل لأحد إليه أبدا قال الله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا

بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وهذه الآية مكية وقال في سورة الطور وهي مكية أم تقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين أي إن كنتم صادقين في أنه قاله من عنده فهو بشر مثلكم فأتوا بمثل ما جاء به فانكم مثله وقال تعالى في سورة البقرة وهي مدنية معيدا للتحدي وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين وقال تعالى ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون** وقال تعالى **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾

فبين تعالى أن الخلق عاجزون عن معارضة هذا القرآن بل عن عشر سور مثله بل عن سورة منه وأنهم لا يستطيعون ذلك أبدا كما قال تعالى فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا أي فان لم تفعلوا في الماضي ولن تستطيعوا ذلك في المستقبل وهذا تحد ثان وهو أنه لا يمكن معارضتهم له لا في الحال ولا في المآل ومثل هذا التحدي إنما يصدر عن واثق بأن ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته ولا الاتيان بمثله ولو كان من منقول من عند نفسه لخاف أن يعارض فيفتضح ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس له ومعلوم لكل ذي لب أن محمدا صلى الله عليه وسلم من أعقل خلق الله بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق في نفس الأمر فما كان ليقدم هذا الأمر إلا وهو عالم بأنه لا يمكن معارضته وهكذا وقع فانه من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه وهذا لا سبيل اليه أبدا فانه كلام رب العالمين الذي لا يشبهه شيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في

أفعاله فأني يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق وقول كفار قريش الذي حكاه تعالى عنهم في قوله وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين كذب منهم ودعوى باطلة بلا دليل ولا برهان ولا حجة ولا بيان ولو كانوا صادقين لأتوا بما يعارضه بل هم يعلمون كذب أنفسهم كما يعلمون كذب أنفسهم في قولهم أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه

بكرة وأصيلا قال الله تعالى قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما أي أنزله عالم الخفيات رب الأرض والسموات الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون فإنه تعالى أوحى الى عبده ورسوله النبي الأمي الذي كان لا يحسن الكتابة ولا يدريها بالكلية ولا يعلم شيئا من علم الأوائل وأخبار الماضين فقص الله عليه خبر ما كان وما هو كائن على الوجه الواقع سواء بسواء وهو في ذلك يفصل بين الحق والباطل الذي اختلفت في إيراده جملة الكتب المتقدمة كما قال تعالى ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا** وقال تعالى **وأنزلنا عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** ﴾ الآية وقال تعالى:﴿ **و ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليهم الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون** ﴾.

فبين تعالى أن نفس إنزال هذا الكتاب المشتمل على علم ما كان وما يكون وحكم ما هو كائن بين الناس على مثل هذا النبي الأمي وحده كان من الدلالة على صدقه وقال تعالى وإذ تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحب إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمو يقول لهم إني لا أطيق تبديل هذا من تلقاء نفسي وإنما الله عز وجل هو الذي يمحو ما يشاء ويثبت وانا مبلغ عنه وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به لأني نشأت بين أظهركم وأنتم تعلمون نسبي وصدقي وأماتني وأني لم أكذب على أحد منكم يوما من الدهر فكيف يسعني أن أكذب على الله عز وجل مالك الضر والنفع الذي هو على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، وأي ذنب عنده أعظم من الكذب عليه ونسبة ما ليس منه إليه كما قال تعالى ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين أي لو كذب علينا لانتقمنا منه أشد الانتقام وما استطاع أحد من أهل الأرض أن يحجزنا

عنه ويمنعنا منه وقال تعالى:

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾

وقال تعالى:

﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وهذا الكلام فيه الأخبار بأن الله شهيد على كل شيء وأنه تعالى أعظم الشهداء وهو مطلع علي وعليكم فيما جئتكم به عنه وتتضمن قوة الكلام قسما به أنه قد أرسلني إلى الخلق لأنذرهم بهذا القرآن فمن بلغه منهم فهو نذير له كما قال تعالى: ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ ففي هذا القرآن من الأخبار الصادقة عن الله وملائكته وعرشه ومخلوقاته العلوية والسفلية كالسموات والأرضين وما بينهما وما فيهن أمور عظيمة كثيرة مبرهنة بالأدلة القطعين المرشدة الى العلم بذلك من جهة العقل الصحيح كما قال تعالى ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا وقال تعالى:﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون وقال تعالى ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾

وفي القرآن العظيم الأخبار عما مضى على الوجه الحق وبرهانه ما في كتب أهل الكتاب من ذلك شاهدا له مع كونه نزل على رجل أمي لا يعرف الكتابة ولم يعان يوما من الدهر شيئا من علوم الأوائل ولا أخبار الماضين فلم يفجأ الناس إلا بوحي إليه عما كان من الأخبار النافعة التي ينبغي أن تذكر للاعتبار بها من أخبار الأمم مع الأنبياء وما كان منهم من أمورهم معهم وكيف نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين بعبارة لا يستطيع بشر أن يأتي بمثلها أبد الآبدين ودهر الداهرين ففي مكان تقص القصة موجزة في غاية البيان والفصاحة وتارة تبسط فلا أحلى ولا أجلى ولا أعلى من ذلك السياق حتى كأن التالي أو السامع مشاهد لما كان حاضر له معاين للخبر بنفسه كما قال تعالى ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت

لديهم إذ يتخصمون ﴾

وقال تعالى في سورة يوسف ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من اجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ إلى أن قال في آخرها ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

وقال تعالى ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى وقال تعالى قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾

وعد تعالى أنه سيظهر الآيات القرآن وصدقه وصدق من جاء به بما يخلقه في الآفاق من الآيات الدالة على صدق هذا الكتاب وفي نفس المنكرين له المكذبين ما فيه حجة عليهم وبرهان قاطع لشبههم حتى يستيقنوا أنه منزل من عند الله على لسان الصادق ثم أرشد إلى دليل مستقل بقوله أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد أي في العلم بأن الله يطلع على هذا الأمر كفاية في صدق هذا المخبر عنه إذ لو كان مفتريا عليه لعاجله بالعقوبة البليغة كما تقدم بيان ذلك وفي هذا القرآن إخبار عما وقع في المستقبل طبق ما وقع سواء بسواء وكذلك في الأحاديث حسب ما قررناه في كتابنا التفسير وما سنذكره من الملاحم والفتن كقوله تعالى:

﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وأخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾

وهذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وكذلك قوله تعالى في سورة اقتربت وهي مكية بلا خلاف سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر وقع مصداق هذه الهزيمة يوم بدر بعد ذلك إلى أمثال هذا من الأمور البينة الواضحة وسيأتي فصل فيما أخبر به من الأمور التي وقعت بعده عليه السلام طبق ما أخبر به وفي القرآن الأحكام العادلة أمراً ونهياً المشتملة على الحكم البالغة التي إذا تأملها ذو الفهم والعقل الصحيح قطع بأن هذه الأحكام إنما أنزلها العالم بالخفيات الرحيم بعباده الذي يعاملهم بلطفه ورحمته وإحسانه قال تعالى ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾ أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأوامر والنواهي وقال تعالى ﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ أي أحكمت ألفاظه وفصلت معانيه وقال تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى

ودين الحق أي العلم النافع والعمل الصالح وهكذا روي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه أنه قال لكميل بن زياد هو كتاب الله فيه خير ما قبلكم وحكم ما بينكم ونبأ ما بعدكم وقد بسطنا هذا كله في كتابنا التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة.

فالقرآن العظيم معجز من وجوه كثيرة من فصاحته وبلاغته ونظمه وتراكيبه وأساليبه وما تضمنه من الأخبار الماضية والمستقبلة وما اشتمل عليه من الأحكام المحكمة الجلية والتحدى ببلاغة ألفاظه يخص فصحاء العرب والتحدى بما اشتمل عليه من المعاني الصحيحة الكاملة وهي أعظم في التحدي عند كثير من العلماء يعم جميع أهل الأرض من الملتين أهل الكتاب وغيرهم من عقلاء اليونان والهند والفرس والقبط وغيرهم من اصناف بني آدم في سائر الأقطار والأمصار وأما من زعم من المتكلمين أن الاعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع إنكار ذلك أو هو سلب قدرتهم على ذلك فقول باطل وهو مفرع على اعتقادهم أن القرآن مخلوق خلقه الله في بعض الاجرام ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق وقولهم هذا كفر وباطل وليس مطابقا لما في نفس الأمر بل القرآن كلام الله غير مخلوق تكلم به كما شاء تعالى وتقدس وتنزه عما يقولون علوا كبيرا فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله وتنزه عما يقولون علوا كبيرا فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الأتيان بمثله ولو تعاضدوا وتناصروا على ذلك بل لا تقدر الرسل الذين هم افصح الخلق وأعظم الخلق وأكملهم أن يتكلموا بمثل كلام الله وهذا القرآن الذي يبلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله أسلوب كلامه لا يشبه أساليب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأساليب كلامه عليه السلام المحفوظة عنه بالسند الصحيح إليه لا يقدر أحد من الصحابة ولا من بعدهم أن يتكلم بمثل أساليبه في فصاحته وبلاغته فيما يرويه من المعاني بألفاظه الشريفة بل واسلوب كلام الصحابة أعلى من أساليب كلام التابعين وهلم جرا إلى زماننا و علماء السلف أفصح وأعلم وأقل تكلفا فيما يرونه من المعاني بألفاظهم من علماء الخلف وهذا يشهده من له ذوق بكلام الناس كما يدرك تفاوت ما بين أشعار العرب في زمن الجاهلية وبين أشعار المولدين الذين كانوا بعد ذلك ولهذا جاء الحديث الثابت في هذا المعنى وهو فيما رواه الإمام أحمد قائلا حدثنا حجاج ثنا ليث حدثني سعيد بن أبي سعيد **عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما من الأنبياء إلا قد أعطي من ألآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)** وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الليث بن سعد به ومعنى هذا أن الأنبياء عليهم السلام كل منهم قد أوتي من الحجج والدلائل على صدقه وصحة ما جاء به عن ربه ما فيه كفاية وحجة لقومه الذين بعث إليهم سواء آمنوا به ففازوا

بثواب إيمانهم أو جحدوا فاستحقوا العقوبة وقوله وإنما كان الذي أوتيت أي جله وأعظمه الوحي الذي أوحاه إليه وهو القرآن الحجة المستمرة الدائمة القائمة في زمانه وبعده فان البراهين التي كانت للأنبياء انقرض زمانها في حياتهم ولم يبق منها إلا الخبر عنها وأما القرآن فهو حجة قائمة كأنما يسمعه السامع من في رسول الله صلى الله عليه وسلم فحجة الله قائمة به في حياته عليه السلام وبعد وفاته ولهذا قال فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة أي لاستمرار ما آتاني الله

من الحجة البالغة والبراهين الدامغة فلهذا يكون يوم القيامة أكثر الأنبياء تبعا."[٧]

وقال أيضا ابن كثير:

"ومن الدلائل المعنوية أخلاقه عليه السلام الطاهرة وخلقه الكامل وشجاعته وحلمه وكرمه وزهده وقناعته وإيثاره وجميل صحبته وصدقه وأمانته وتقواه وعبادته وكرم أصله وطيب مولده ومنشئه ومرباه كما قدمناه مبسوطا في مواضعه وما أحسن ما ذكره شيخنا العلامة أبو العباس بن تيمية رحمه الله في كتابه الذي رد فيه على فرق النصارى واليهود وما أشبههم من أهل الكتاب وغيرهم فانه ذكر في آخره دلائل النبوة وسلك فيها مسالك حسنة صحيحة منتجة بكلام بليغ يخضع له كل من تأمله وفهمه قال في آخر هذا الكتاب المذكور :

(دلائل نبوته من خلال سيرته وأخلاقه).

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأقواله وأفعاله من آياته أي من دلائل نبوته قال وشريعته من آياته وأمته من آياته وعلم أمته من آياته ودينهم من آياته وكرامات صالحي أمته من آياته وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث ومن حين بعث إلى أن مات وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسبا من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من ذريته وجعل الله له ابنين إسماعيل وإسحاق وذكر في التوراة هذا وهذا وبشر في التوراة بما يكون من ولد إسماعيل ولم يكن من ولد إسماعيل من ظهر فيه ما بشرت به النبوات غيره ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث الله فيهم رسولا منهم ثم الرسول صلى الله عليه وسلم من قريش صفوة بني إبراهيم ثم من بني هاشم صفوة قريش ومن مكة أم القرى وبلد البيت الذي بناه إبراهيم ودعا للناس إلى حجه ولم يزل محجوجا من عهد إبراهيم مذكورا في كتب الأنبياء بأحسن وصف وكان صلى الله عليه وسلم من أكمل الناس تربية ونشأة لم يزل معروفا بالصدق والبر ومكارم الأخلاق والعدل وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم مشهودا له

(٧) البداية والنهاية الجزء السادس كتاب دلائل النبوة.

بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ومن آمن به ومن كفر بعد النبوة ولا يعرف له شيء يعاب به لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولا جرب عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة وقد كان صلى الله عليه وسلم خلقه وصورته من أحسن الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله وكان أميا من قوم أميين لا يعرف هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب من التوراة والإنجيل ولم يقرأ شيئا من علوم الناس ولا جالس أهلها ولم يدع نبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره وأخبر بأمر لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثله ثم اتبعه أتباع الأنبياء وهم ضعفاء الناس وكذبه أهل الرياسة وعادوه و

سعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة فانه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جهات يوليهم إياها ولا كان له سيف بل كان السيف والجاه والمال مع أعدائه وقد آذوا أتباعه أنواع الأذى وهم صابرون محتسبون لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم فيجتمع في الموسم قبائل العرب فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة ويدعوهم إلى الله صابرا على ما يلقاه من تكذيب المكذب وجفاء الجافي وإعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود وقد سمعوا أخباره منهم وعرفوه فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر الذي يخبرهم به اليهود وكانوا سمعوا من أخباره أيضا ما عرفوا به مكانته فإن أمره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة فآمنوا به وبايعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم وعلى الجهاد معه فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة وبها المهاجرون والأنصار ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة إلا قليلا من الأنصار أسلموا في الظاهر ثم حسن إسلام بعضهم ثم أذن له في الجهاد ثم أمر به ولم يزل قائما بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل والوفاء لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلم لأحد ولا غدر بأحد بل كان أصدق الناس وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال من حرب وسلم وأمن وخوف وغنى وفقر وقدرة وعجز وتمكن وضعف وقلة وكثرة وظهور على العدو تارة وظهور العدو تارة وهو على ذلك كله لازم لأكمل الطرق وأتمها حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام لا يعرفون آخرة ولا معادا فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح أفضل من هؤلاء وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم تعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين وهو صلى الله عليه وسلم مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال مات ولم يخلف درهما ولا

دينارا ولا شاة ولا بعيرا إلا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا من شعير ابتاعها لأهله وكان بيده عقار ينفق منه على أهله والباقي يصرفه في مصالح المسلمين فحكم بأنه لا يورث ولا يأخذ ورثته شيئا من ذلك وهو في كل وقت يظهر من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ويخبرهم بما كان وما يكون ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويشرع الشريعة شيئا بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بعثه به وجاءت شريعته أكمل شريعة لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف الا أمر به ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه وأحل لهم الطيبات لم يحرم منها شيئا كما حرم في شريعة غيره وحرم الخبائث لم يحل منها شيئا كما استحل غيره وجمع محاسن ما عليه الأمم فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن الملائكة وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه وأخبر بأشياء ليست في الكتب وليس في الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفضل وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر له فضلها ورجحانها وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة وإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهادا وأشجع قلوبا وإذا قيس سخاؤهم وبرهم وسماحة أنفسهم بغيرهم ظهر أنهم أسخى وأكرم من غيرهم وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها وهو الذي أمرهم بها لم يكونوا قبل متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده من الحواريين ومن بعض الحواريين وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا لما غيروا من دين المسيح في دين المسيح أمورا من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكونوا قبله يقرؤون كتابا بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته وهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ونهاهم عن أن يفرقوا بين أحد من الرسل فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم وقال تعالى ﴿آمن الرسول بما

أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ ألآية وأمته عليه السلام لا يستحلون أن يوجدوا شيئا من الدين غير ما جاء به ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله لكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم اعتبروا به وما حدثهم أهل الكتاب موافقا لما عندهم صدقوه وما لم يعلم صدقه ولا كذبه أمسكوا عنه وما عرفوا بأنه باطل كذبوه ومن أدخل في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند والفرس واليونان أو غيرهم كان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون وهو الذي عليه أئمة الدين الذين لهم في الأمة لسان صدق وعليه جماعة المسلمين وعامتهم ومن خرج عن ذلك كان مذموما مدحورا عند الجماعة وهو مذهب أهل السنة والجماعة الظاهرين إلى قيام الساعة الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة) وقد يتنازع بعض المسلمين مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عموما ودين محمد صلى الله عليه وسلم خصوصا ومن خالف في هذا الأصل كان عندهم ملحدا مذموما ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا دينا ما قام به أكابر علمائهم وعبادهم وقاتل عليه ملوكهم ودان به جمهورهم وهو دين مبتدع ليس هو دين المسيح ولا دين غيره من الأنبياء والله سبحانه أرسل رسله بالعلم النافع والعمل الصالح فمن اتبع الرسل له سعادة الدنيا والآخرة وإنما دخل في البدع من قصر في اتباع الأنبياء علما وعملا ولما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق تلقى ذلك عنه المسلمون من أمته فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد أخذوه عن نبيهم كما ظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم هو في الأصل المعلم وهذا يقتضي أنه عليه السلام كان أكمل الناس علما ودينا وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقا في قوله إني رسول الله إليكم جميعا لم يكن كاذبا مفتريا فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم إن كان صادقا أو من هو من أشرو الناس وأخبثهم إن كان كاذبا وما ذكر من كمال علمه ودينة يناقض الشر والخبث والجهل فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين وهذا يستلزم أنه كان صادقا في قوله إني رسول الله إليكم جميعا لأن الذي لم يكن صادقا إما أن يكون متعمدا للكذب أو مخطئا والأول يوجب أنه كان ظالما غاويا والثاني يقتضي أنه كان جاهلا ضالا ومحمد صلى الله عليه وسلم كان علمه ينافي جهله وكمال دينه ينافي تعمد الكذب فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم

يكن يتعمد الكذب ولم يكن جاهلا يكذب بلا علم وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقا عالما بأنه صادق ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾وقال تعالى عن الملك الذي جاء به ﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ثم قال عنه وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين إلى قوله هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾

بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه فان الشيطان يقصد الشر وهو الكذب والفجور ولا يقصد الصدق والعدل فلا يقترن إلا بمن فيه كذب إما عمدا وإما خطأ وفجورا أيضا فان الخطأ في الدين هو من الشيطان أيضا كما قال ابن مسعود لما سئل عن مسألة أقول فيها برأي فان يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه فان رسول الله بريء من تنزل الشياطين عليه في العمد والخطأ بخلاف غير الرسول فإنه قد يخطئ ويكون خطؤه من الشيطان وإن كان خطؤه مغفورا له فإذا لم يعرف له خبرا أخبر به كان فيه مخطئا ولا أمرا أمر به كان فيه فاجرا علم أن الشيطان لم ينزل عليه وإنما ينزل عليه ملك كريم ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي إنه لقول رسول كريم ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ﴾ [٨]أهـ.

(٨) المصدر السابق

المطلب الخامس

خصائص البينة المحمدية (القرآن الكريم)

مما سبق يتبين لنا أن معجزة محمد ﷺ امتازت بمميزات وخصائص عن سائر معجزات النبيين و المرسلين . عليهم الصلاة والسلام . يمكن أن نجملها فيما يلي:

١) **أن نبوة محمد ﷺ بنيت على إعجاز القرآن الكريم الذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أ و** بسورة من مثله . كما سبق . يقول الإمام الباقلاني:

"فصل في أن نبوة النبي معجزتها القرآن:- الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة ونقل بعضها نقلا متواترا يقع به العلم وجودا وبعضها مما نقل نقلا خاصا إلا أنه حكى بمشهد من الجمع العظيم وأنهم شاهدوه فلو كان الأمر على خلاف ما حكي لأنكروه أو لأنكره بعضهم فحل محل المعنى الأول وإن لم يتواتر أصل النقل فيه وبعضها مما نقل من جهة الآحاد وكان وقوعه بين يدي الآحاد،فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت بقاء العصرين ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد"(٩)

فثبت أن معجزة محمد ﷺ التي بنيت عليها الرسالة هي القرآن الكريم، بخلاف غيره . عليه الصلاة والسلام . من الأنبياء والمرسلين فقد كانت معجزاتهم معجزات مادية محسوسة كالعصى والطوفان والصاعقة وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى...الخ ولم تكن في الكتب السماوية المنزلة.

٢) ﷺ**أن هذه المعجزة التي جاء بها محمد إلى العالمين معجزة متجددة باقية لا تنقضي ولا تنتهي بمرور العصور والأزمان فهو كتاب الله الخالد:**

عن علي رضي الله عنه وخرجه الترمذي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول"ستكون فتن كقطع الليل المظلم قلت يا رسول الله وما المخرج منها قال كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين

---

(٩) إعجاز القرآن ص٨

والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم"

فالقرآن العظيم هو المعجزة الخالدة المتجددة له ﷺ بخلاف الأنبياء والمرسلين السابقين فقد انتهت وانقرضت معجزاتهم بموتهم . عليهم الصلاة والسلام . فلن تجد اليوم عصى موسى ولا طوفان نوح ولا طب عيسى...الخ ولكن محمدا ﷺ لا تزال معجزته باقية ما بقي الليل والنهار كما قال تعالى:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ الحجر ٩٣ **أن هذه المعجزة القرآنية امتازت على غيرها من المعجزات كونها اشتملت على العلم الإلهي اللدني الذي** وصفه الله تعالى بقوله ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ الكهف ١٠٩

قال الإمام السيوطي في هذه الآية:

"أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي ﴾ يقول: علم ربي.وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ يقول: ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام الله وحكمته".(١٠)

فالقرآن العظيم اشتمل على العلم الإلهي الذي لايحده زمان ولامكان ومهما أوتي البشر من علم فلن يبلغوه وكما قال تعالى:

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ الإسراء الآية ٨٥

وهذا سر من أسرار عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثل هذا القرآن، لأن فيه العلم الإلهي كما قال تعالى:

﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾

(١٠) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي ج٥ الآية ١٠٩ من سورة الكهف

النساء الآية ١٦٦

قال الإمام البيضاوي في تفسيره" أنزله بعلمه أنزله متلبسا بعلمه الخاص به وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ"[١١] فهو معجزة متجددة تظهر بتجدد العلم البشري وتطوره.

وسنأتي لهذا في أبحاثنا القادمة بمزيد من البيان والتفصيل إن شاء الله تعالى.

٤) أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة لمحمد ﷺ تكفل الله تعالى بحفظه على الدوام

كما قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ الحجر ٩

فأوكل الله تعالى حفظ كتابه الكريم إليه سبحانه وتعالى بخلاف سائر الكتب الأخرى فأوكل حفظها إلى الأقوام المنزلة عليهم كما قال تعالى:

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ المائدة ٤٤

فأوكل الله تعالى حفظ التوراة والإنجيل إلى الأحبار والرهبان فغيروا وبدلوا وحرفوا كلام الله تعالى، وهذا ما ليس في القرآن العظيم فقد تكفل الله بحفظه من أي زيادة أو نقصان، منذ نزل على محمد ﷺ وإلى يومنا ولأى أن يرث الله الأرض ومن عليها لم ينقص منه حرف أو يزد مع تعاقب الأجيال والأمم وهو كما أنزل محفوظ في السطور وفي الصدور، فلله الحمد والمنة.

٥) وتميزت معجزة محمد ﷺ (القرآن الكريم) كذلك باحتوائه على علوم مختلفة في كافة مجالات الحياة الدنيوية والأخروية فما من علم أو معرفة إلا وذكره القرآن الكريم كما قال تعالى:

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ النحل ٨٩

قال ابن كثير في هذه الآية:

" قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام. وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم"أهـ

---

(١١) ج٢ ص ٢٨١

وليس هذا إلا في القرآن العظيم، أما ما سواه من الكتب السماوية فقد احتوت على القصص والمواعظ وبعض الأحكام لا غير ، بخلاف القرآن الكريم فما من علم أو فن إلا وفي القرآن بيانه كما سبين ذلك في المباحث التالية بمشيئة الله تعالى.

وتميزت معجزته ﷺ بخصائص أخرى ليس هذا مقام سردها وبالله تعالى التوفيق.

فهرس المحتويات

البينة القرآنية ٣

المطلب الأول معنى المعجزة() في اللغة والاصطلاح ٤

المطلب الثاني أهمية البينة (المعجزة) في إثبات دعوة المرسلين ٧

المطلب الثالث البينات والمعجزات التي أيد الله بها أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام . ٩

المطلب الرابع البينة التي أيد الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم (القرآن الكريم) ١٧

المطلب الخامس خصائص البينة المحمدية (القرآن الكريم) ٢٨

فهرس المحتويات ٣٢